سورة الماعون – دراسة بلاغية تحليلية

م.د. عبد القادر عبد الله فتحي
معهد إعداد المعلمات / نينوى

تاريخ تسليم البحث : ٢٠٠٩/٩/٦ ؛ تاريخ قبول النشر : ٢٠٠٩/١١/١٩

ملخص البحث :

يتناول البحث واحدة من قِصار السُّوَر وهي سورة الماعون، بالوقوف أمام نصّها الكريم وتدبّره، لاستشفاف ما يمكن من بلاغتها، وتجلية ما احتوته من ظواهر بلاغية، وإظهار مدى إسهام هذه الظواهر في احتضان مقاصد السورة وصورها المختلفة، وكذلك اسهامها في التأثير على المتلقي وتحقيق اهداف الدعوة القرآنية. وقد حاول البحث التأكيد على أن الفنون البلاغية ليست فنوناً تجريدية لذاتها وانما هي جزء من بناء النص لها اهدافها ودلالاتها، ولاسيما في النص القرآني، حيث تُوظَّف الصور البلاغية لخدمة المعاني. ولم نعمد إلى تقسيم البحث إلى محاور، وإنما جاء لُحمَةً واحدةً على سبيل المنهج التحليلي الذي اسسّ له الدكتور جليل رشيد (رحمه الله) وسار على نهجه شيخي واستاذي الدكتور احمد فتحي رمضان، الذي اخذت من علمه واسلوبه الشيء الكثير مما دعاني الى اقتباس بعض عباراته، والسير على وفق ذلك المنهج الذي يقف امام مكنونات النص ليوصل القارئ إلى روافد الجمال والمعاني الثانية، وهو بهذا يقترب من بعض أسرار النص وبلاغته المعجزة مُعتمداً في كل ذلك على المدّونات التفسيرية وكتب اللغة والبلاغة. وقد اختيرت سورة الماعون موضوعاً للبحث كونها تعرض صورة الكفار والمنافقين وجزءاً من صفاتهم، وتهدف من خلال معانيها الثواني إلى تحذير المسلمين مما في الصورتين، فضلاً عن أنها قد تواشجت فيها الفنون البلاغية على نحو متناغم، فكانت لوحةً كاملةً يحتاج المتلقي إلى مفاتيح للدخول إلى عالمها الواسع العميق، فكانت الظواهر البلاغية هي المفاتيح التي تبقى معها السورة تحمل اعجازها المستمر مع الزمان والمكان.

Surat AL-MA"OON: A Rhetorical and Analyzing Study

Lecturer Dr. Abd-alqadeer Abdallah Fathi
Teacher's Training Institute L Nineveh

Abstract:

The research discusses one of the short Suras of the holy Koran which is Alma'oon Sura, for its text to be examined carefully in order to find out whatever can be inferred of its rhetoric and making clear whatever it has included of the rhetoric manifestations and displaying how these manifestations have embraced the intentions of the Sura and its different images as well as how far it has participated in affecting the recipient such that achieving the objectives of the Koranic call.

The research has tried to confirm that the rhetoric arts are not abstractive ones for themselves only; but to prove that they are a part of the text with their own goals and denotations especially in the Koranic text where the rhetoric images are taken on to serve the meanings.

The researcher didn't mean to divide the research into axes; however it was presented as a whole bond in terms of analytic methodology that which Dr.Jalil Rasheed has set its foundation, and Dr Ahmed has followed, I had taken a lot from his experience and knowledge. This helped me to derive some of his statement following that text examines text's hidden contents to take the reader to the aesthetic branches and the invisible meanings as well. In this way the researcher approaches some of the secrets of the text and the miraculous nature of the Koranic rhetoric relying - as a whole - on the interpretive records and books of linguistics and rhetoric.

ALMA"OON Sura has been chosen to be the topic under discussion because it displays the image of the hypocrites and the disbelievers and some of their attributes aiming - via its implied meanings- at warning Muslims from what is intended by the two images and because rhetoric arts in the Sura were in harmony with each other. Thus, it appeared as an integral portrait that requires the recipient to have clues in order to penetrate into its wide and deep realm. Therefore, the rhetoric manifestations were the clues that the Sura maintains its inimitability over time and space.

توطئة:

يتناول البحث سورة الماعون(١)، وهي سورة مكية في بعض الروايات، ومدنية في أخرى، ومكية ومدنية في روايات أخرى(٢)، فآياتها الثلاث الأولى مكية، والأربع الأخرى مدنية، وهذا هو الارجح. والسورة كلها وحدة متماسكة ذات اتجاه واحد لتقرير حقيقة من حقائق هذه العقيدة، وعدد آياتها سبع، وروي أنّ أوّلها نزلَ في العاص بن وائل السهمي، وقيل في الوليد بن المغيرة. وقيل في عمرو بن عائذ، وقيل في أبي سفيان بن حرب بسبب أنه كان ينحر كل اسبوع جَزوراً فجاءَهُ مرة يتيم فسأله من لحمها فقرعه بعصا، وقيل في أبي جهل كان وصيّاً على يتيم فأتاه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفَعه دفعاً شنيعاً، وقيل في رجل من المنافقين(٣).

ولهذه الروايات في أسباب النزول أهمية كبيرة في إضاءة اسلوب السورة، كما أنّها تُجلّي صورة الكافر وصورة المنافق، إذ ترتبط الثانية بالأولى في نظمٍ مُعجِز بُنِيَ على (حُسن ابتداءٍ وحُسن تَخلّص وحُسن انتهاء)، فالسورة– وهي تعرض بعضاً من صفات الكافر وصفات المنافق– تهدف إلى تحذير المسلمين مما في الصورتين من صفاتٍ توعَّدَ الله من اتصَفَ بها بالويل والهلاك والخُسران(٤).

وتُضي لنا أسباب النزول أيضاً ظواهر بلاغية واسلوبية تشكّلت في نسيج السورة(٥)، فالتشويق الذي يُحدثه الاستفهام يُشكّل تنبيهاً على أن الذي يُكذّب بالبعث والنشور والجزاء لا تخفى على الله ورسوله والمسلمين صفاته،فيُفتَضَحُ أمرُهُ، وتُعلَنُ صفاته التي خَلت من الإنسانية في موضع يتطلّبها، وخَلت مما لا يحتاج– في الاتصاف بها– إلى دينٍ أو عقيدة، فهي صورة الكافر الجاحد لِنعم الله، المُكذّب بيوم الحساب والجزاء، وقد عرضت السورة –من صفاته الذميمة– انه يهين اليتيم ويزجره غِلظةً لا تأديباً، ولا يفعل الخير حتى ولو بالتذكير بحقّ المسكين، فلا هو أحسن في عبادة ربّه، ولا أحسن إلى خلقهِ. هكذا وصفَ التعبير القرآني –هذا

---

(١) سُميت هذه السورة أيضاً بـ(سورة التكذيب) و (سورة الدين) و (سورة اليتيم) وفي بعض المصاحف وبعض التفاسير بسورة (أرأيت)، ينظر: محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فَنّي الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق د.عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، لبنان: ٦٧٣/٥.

(٢) ينظر: ابو حيان الاندلسي، البحر المحيط، دراسة وتحقيق الشيخ عادل احمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧١م :٥١٧/٨.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥١٧/٨. وأبو الطيّب القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن، قدَّمَ له عبد الله بن ابراهيم الأنصاري، دار احياء التراث الإسلامي، قطر: ٤٠٢/١٥.

(٤) ينظر: د.احمد فتحي رمضان، في سورة اللهب، دراسة بلاغية، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العدد ٣١، ١٩٩٨: ٢٠٠.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٠.

المُكذب- بأوصافٍ كان المسلمون منها في غاية النّفرة، وصوّره بأشنع صورةٍ بَعثاً لهم على التصديق، وزجراً عن التكذيب، وتحذيرا من التشّبه والتقليد بأصحاب الرذائل.

وكذلك عرضت السورة صورة المنافق باسلوبٍ تتواشج فيه الفنون البلاغية لتُجلّي صورة المنافق في مراءاته، وفي انفصال ظاهر أعماله عن بواطنها، حيث صلاته التي لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر، ولا تأمره بفعل الخيرات، فَتُفضَحُ مُراءآته إذ لا يقصد بعمله وجه الله، غافل عن صلاته، لا يؤديها في اوقاتها، وإذا قام بها كانت (صورة) لا (معنى). وتلتقي صورته القبيحة وهو (يمنع الماعون) بصورة الكافر الذي ذُكِر في أول السورة وهو (لا يحضّ على طعام المسكين) بما يُشبه رَدّ العجز على الصدر، فمقصود السورة التنبيه على أنّ التكذيب بالبعث والجزاء أصل الخبائث إذ يُجرئُ المُكذّب على مساوئ الأخلاق ومنكرات الأعمال حتى تكون الاستهانة بالعظائم خلقاً له، فيصير ممّن ليس له خلاق.

ونحن إذ نحلل السورة بلاغياً فإننا ننظر إلى الظواهر البلاغية في نسيج السورة بوصفها لوحة كاملة، ننظر إليها نظرة تحليلية شاملة تتداخل فيها الفنون البلاغية في بنية السورة، وهي تعمل على إيصال الأفكار والمعاني إلى المتلقي بحيوية وقوة تأثير(١).

إن الدراسة التحليلية لتُحاول الوقوف على مكنونات النص من فنٍّ وجمال بما يثري الفِكر والشعور، ويقف بالمتلقي على روافد الجمال والذوق في تلقّيه المعاني(٢)، وما أحوجَ الدرس البلاغي لهذا المنهج الذي يقترب من أسرار النص ذوقاً وعلماً وفنّاً وجمالاً، ((فقد نكون عرفنا البلاغة علماً وثقفناها صناعةً ومنطقاً، غير أننا ما نزال في أشد الحاجة إلى أن نجتليها ذوقا أصيلاً وحسّاً مرهفاً في آيات الفصاحة العُليا والبيان المُعجز))(٣).

ولا شك في أن الظواهر البلاغية في أيّ نص أدبي سيما النص القرآني ما هي إلاّ دلائل استكشاف لمناحي الفن والجمال الكامن في بنيته، وما هي -في نظر البحث- إلاّ مفاتيح للدخول إلى عالم السورة الواسع العميق على الرغم من حجم مساحة السورة التي لا تتجاوز سبع آيات، مفاتيح تبقى معها السورة تحمل إعجازها المستمر مع الزمان والمكان(٤).

---

(١) ينظر: د. احمد فتحي رمضان، في سورة اللهب، دراسة بلاغية: ٢٠٠.

(٢) ينظر: د. احمد فتحي رمضان، (هُنّ عوادي يوسف) لأبي تمام الطائي- دراسة بلاغية في متنها الشعري – بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العدد ٢٢، ١٩٩١: ٢٣٧.

(٣) د. عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف بمصر، ١٩٧١م: ٢٢١.

(٤) ينظر: د. احمد فتحي رمضان، في سورة اللهب، دراسة بلاغية: ٢٠٠-٢٠١.

تحليل السورة بلاغيا:

قبل تحليل السورة بلاغياً لابدّ من إيراد نصّها الكريم أولاً، وتحديد الظواهر البلاغية فيه ثانياً، ومن ثَمّ توزيعها إلى علومها الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) التي تُشكّل لُحمة البلاغة وسُداها.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ صدق الله العظيم

أ- علم المعاني: وردَ في السورة منه: (الاستفهام – الفصل والوصل – ايجاز الحذف – الإظهار في مقام الإضمار – الاحتباك – وضع الاسم الظاهر موضع الضمير – القصر بضمير الفصل – التذييل – الاكتفاء).

ب- علم البيان: وردَ في السورة منه: (الكناية – الاستعارة – المجاز المرسل).

ج- علم البديع: ورد في السورة منه: (الجناس الناقص- الطباق المعنوي- التكرار- مراعاة النظير- رد العجز على الصدر).

وقد تواشجت هذه الظواهر البلاغية جميعاً في نسيج السورة على نحوٍ متناغمٍ في بَثّ مقاصد السورة وأهدافها.

تُستَهلُّ السورة بابتداءٍ غاية في الحُسن إذ يناسب المقصود مناسبة تامة ((وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود ويسمى براعة الاستهلال))(١).

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ ﴾، إذ إن افتتاح السورة بالاستفهام يُحقق تنبيهاً للسامع او القاريء، وتشويقاً لمعرفة المستفهم عنه وصفاته، فضلاً عمّا في الاستفهام من التعجيب من حال المستفهَم عنه زيادة في التنبيه والتشويق، وقد صيغ هذا التعجيب في نظم مُشوّق لأنّ الاستفهام عن رؤية مَن ثبتت له صلة الموصول يذهب بذهن السامع مذاهب شتى لمعرفة المقصود بالاستفهام، فالتكذيب بالدين شائعٌ عندهم ولذلك لا يكون مثاراً للتعجّب، فيترقبّ

---

(١) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٨٩م: ٢/٥٩٤.

السامع لما يرد بَعده وهو الآية الثانية(١)، وهكذا يتحقق أيضاً ما تفيده همزة الاستفهام من تقرير وتفهيم، ليتذكّر السامع مَن يعرفه بهذه الصفة(٢).

وهكذا حققّت براعة الاستهلال وظيفتين: الأولى: جلب انتباه القارئ أو السامع وشَدّهِ إلى موضوع السورة. والثانية: التلميح له عمّا تحتويه السورة من معانٍ، فَحُسنُ الابتداء أو براعة المطلع ((هو أن يُجعَل أوّل الكلام مناسباً للمقام بحيث يجذب السامع إلى الإصغاء بكُلّيته، لأنه أوّل ما يقرع السمع))(٣)، ويُلحَظُ أنّ هذا الابتداء له موقعٌ يرتبط مع بقية عناصر السورة برابطٍ عضوي، أي أنّ السورة الكريمة تنبثق عنه وترتبط به وهي تُصوّر الكافر والمنافق، وأنّ معانيه تمتد داخل السورة لتولّد هذه الصور مما يُجلّي شدّة الالتئام والانسجام(٤). والرؤية هنا قد تكون بمعنى العلم(٥)، وقد تكون بصرية، إذ إنّ المكذّبين بالدين معروفون وأعمالهم مشهورة، فَنُزلّت شهرتهم منزلة الأمر المشاهَد المُبصَرْ، وقيل إنها بمعنى أخبرني(٦)، وهي خطابٌ للرسول ﷺ، أو هي خطاب عام لكل عاقل تتأتى منه الرؤية ليرى، والمعنى: أرأيت هذا الذي يُكذّبُ بالدين بعد ظهور دلائله ووضوح تبيانه، فكيف يليق بالعاقل جرّ العقوبة الأبدية إلى نفسه؟ وكيف يليق به أن يبيع الكثير الباقي بالقليل الفاني؟ فمن كانت هذه صفاته فقد أنكر البعث والنشور، وهكذا ثبتَ أنَّ إنكار القيامة أصلٌ لجميع أنواع الكفر والمعاصي(٧)، وفي ذلك إيحاءٌ بأن الإيمان بالبعث والجزاء هو الوازع الحق الذي يغرس في النفس جذور الإقبال على الأعمال الصالحة. وقد يكون في الكلام حذف، والتقدير: أرأيت الذي يكذّب بالدين، أمصيبٌ هو أم مخطئ(٨)، أو إنّ رأيته فذلك الذي يدعّ اليتيم، مما يحقق إيجازاً يتناسب مع مقاصد حسن الابتداء.

---

(١) ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس: ٥٦٤/٣٠.

(٢) ينظر: أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط: ٥١٧/٨.

(٣) احمد الهاشمي،جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع،دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١٢: ٤١٩.

(٤) ينظر: ياسين نصير، الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٣م: ٢٢.

(٥) ينظر: محمد جمال الدين القاسمي، (محاسن التأويل)، ضبطه وصححّه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت: ٥١٧/٩.

(٦) ينظر: محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير: ٦٧٣/٥.

(٧) ينظر: فخر الدين الرازي، التفسير الكبير(مفاتيح الغيب)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩م: ١٠٤/٣٢.

(٨) ينظر: أبو عبد الله محمد بن احمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م: ٢١٠/١٩.

وفي الإتيان بالاسم الموصول (الذي) بعد الاستفهام وفعل الرؤية زيادة تشويقٍ حتى تقرع الصّلة سمع السامع فتتمكّن منه كمال تمكّن، والمراد بـ(الذي) الجنس للواحد وما فوقه فيفيد العموم.

أمّا المُستفهَم عنه فَذُكِرَ بالصيغة الفعلية (يُكذّب) لإفادة تكرر ذلك منه ودوامه واستمراره على التكذيب على الرغم من وضوح الدلائل، فضلاً عن دلالة الفعل على التجديد والحركة والايحاء بأنه إرادي من فعل الإنسان، وقد أفاد التضعيف تأكيداً وتكثيراً(١). ولكن بأي شيءٍ كان التكذيب المُستمر؟ (بالدين) هكذا بصيغة التعريف للتعبير عن الحساب والحكم العادل بالثواب والعقاب. فالتعريف يفيد الكمال لأن هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس، ولا تُغني فيه مظاهر العبادات والشعائر مالم تكن صادرة عن اخلاص لله وتجرّدٍ يؤدي الى آثار في القلب تدفع الى العمل الصالح، فليس هذا (الدين) أجزاءٌ وتفاريق موزّعة منفصلة يؤدي منها الانسان ما يشاء ويدع ما يشاء، انما هو منهج متكامل(٢). إنّ (الدين) المُطلق في الاصطلاح الشرعي هو الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ (٣)، وقال أكثر المفسرين أن المراد: (الجزاء والحساب)، وحمله على هذا الوجه أولى لأن مَن يُنكِر الإسلام قد يأتي بالأفعال الحميدة ويحترز عن مقابحها إذا كان مُقرّاً بالقيامة والبعث، أمّا المُقدِم على القبائح من غير مبالاة فليس هو إلاّ المُنكِر للبعث والقيامة(٤).

ويأتي جواب الاستفهام –بعد كل ذلك– على سبيل الوصل بالفاء لعطف الصفة الثانية على الأولى لإفادة تسبّب مجموع الصفتين في الحكم المقصود من الكلام، والمعنى: عطف صِفَتي دَعّ اليتيم وعدم إطعام المسكين على التكذيب بالدين، وفي ذلك كناية عن تحذير المسلمين من الاقتراب من إحدى هاتين الصفتين لأنهما من صفات الذين لا يؤمنون بالجزاء(٥). بالجزاء(٥).

ويتواشج الوصل مع وضع الاسم الظاهر موضع الضمير إذ ((وضعَ اسم الاشارة المتعرضّ لوصف المشار إليه موضع الضمير للاشعار بعلّة الحكم، والتنبيه بما فيه من معنى

---

(١) ينظر: عمار ساسي، الاعجاز البياني في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠٠٧م: ٢٧٤.

(٢) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٧، ١٩٧١م: ٦٧٩/٣٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٩.

(٤) ينظر: الرازي، التفسير الكبير(مفاتيح الغيب): ١٠٥/٣٢.

(٥) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٥٦٤/٣٠–٥٦٥.

البُعد على بُعد منزلته في الشرّ والفساد))(١). فتظهر صورة المُستفهَم عنه، فهو البغيض البعيد المُبعَد من كل خير. وهذا مُسَبَّبٌ عن التكذيب، فالتكذيب بالجزاء سببٌ للغِلظة، فقد جعله جريئاً على مساوئ الأخلاق حتى صارت الاستهانة بالعظائم خُلقاً له، وفي ذلك حثٌّ –على سبيل المخالفة– للمؤمنين على التصديق، وزجرٌ عن التكذيب، والتنزّه عنه، ولاسيما أنَّ صِفَتَيْ الكافر إحداهما من باب الأفعال وهي (دعّ اليتيم) والثانية من باب التروك وهي (عدم الحضّ) وقد اقتُصِرَ عليهما على معنى أنّ الصادر عمّن يُكذّب بالدّين ليس إلاّ ذلك، والمعلوم أنّ المُكذّب بالدين لا يقتصر عليهما، بل جاء ذلك على سبيل التمثيل إذ ذُكِر في كل واحد من القسمين مثال واحد تنبيهاً على سائر القبائح، أو لأنهما تجمعان صفة القبح بحسب الشرع، والاستنكار بحسب المروءة الانسانية(٢). وقد حقق الاسم الموصول بعد اسم الاشارة زيادةً في التشويق قبل ذِكر الصفة الفعلية (يدّع اليتيم)، أي: يدفعه بعنفٍ وشدّةٍ، وهو أصلٌ يدلّ على حركة ودفع وإضطراب، يُقال: دَععتُه أدُعُّهُ دعّاً(٣). قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ (٤)، وصيغة المضارع (يدعّ) تفيد التكرار والدوام والاستمرار والقصدية الإرادية، مما يزيد صورة الكافر قُبحاً ويُظهر إصراره على التكذيب وفعل القبائح، فالتشديد في (يدعّ) أفاد أنه يعتاد ذلك على الدوام والتكثير، فلا يتناول الوعيد مَن وُجِدَ منه ذلك وَنَدِمَ عليه(٥). ودفع اليتيم هنا إمّا أن يكون عن إطعامه والإحسان إليه، أو أن يكون عن حقه وماله وهذا أشد(٦)، او ترك المواساة معه، أو بالزجر والضرب والاستخفاف به.

وهكذا تبدو صورة (الذي يُكذّب بالدين) فهو الذي يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً مهيناً مؤذياً، ولو كانت حقيقة التصديق قد استقرّت في قلبه ما كان ليدعّ اليتيم. فحقيقة التصديق والايمان ليست كلمة تقال باللسان، انما هي تَحوّلٌ في القلب يدفعه الى الخير والبر باخوانه في البشرية، فصورة الكافر هذه صورة عامة إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ممّا يجعل المقصد أكثر شمولية.

---

(١) أبو السعود محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر: ٢٨٧/٣٠.

(٢) ينظر: الرازي، التفسير الكبير(مفاتيح الغيب): ١٠٥/٣٢.

(٣) ينظر: أبو الحسين احمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م: ٣٢٩، مادة: (دعّ).

(٤) سورة الطور: ١٣.

(٥) ينظر: الرازي، التفسير الكبير(مفاتيح الغيب): ١٠٦/٣٢.

(٦) ينظر: أبو محمد بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق السيد عبد العال السيد ابراهيم، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، قطر: ٥٧٩/١٥.

وقد جاءت هذه الصورة في الآية الثانية على سبيل الإيجاز بالحذف إذ حُذِفَ الشرط، والمعنى: إن أردت أن تعرفه (فذلك الذي يدعّ اليتيم) وهذا من أساليب البلاغة(١). وهكذا صوّرت الآية الكافر من الظاهر والباطن، فرسَمته وأبرزت له طولاً وعرضاً وجسَّمته بِغَيْظِهِ وحقدِهِ وجَعلَتْهُ شاخصاً أمام البصر لتتحقق العبرة والموعظة.

وتأتي الصورة الثانية في الآية الثالثة على سبيل الوصل بالواو، فبعد أن كانت الاولى من باب الأفعال، جاءت الثانية من باب التروك، والجمع بينهما –مع أنّ الذي يُكذّب بالدين له صفاتٌ قبيحة أخرى– هو من باب الاكتفاء، ونلمحُ التناسب بين هذه السورة وسورة قريش التي جاءت قبلها إذ ذَمّ الله فيها الجاحدين لنعمة الله الذين (أطعمهم من جوع) وذَمّ في هذه السورة مَن لم يحضّ على طعام المسكين(٢). وإذا كانت الصفة الأولى (دعّ اليتيم) كافية بأن تُعلِنَ عن قُبحِ (الذي يُكذّب بالدين) فكيف وقد أُضيفت عليه صفة ثانية؟ وإذا كان حال مَن تركَ حثَّ غيرهِ على ما ذكر. فما ظنّك بحال مَن تَركَ ذلك مع القدرة عليه؟ وقد جاءت صيغة المضارع (يحضّ) بالتشديد أيضاً لإفادة التجدد والاستمرار والتكرار في عدم الحضّ وكأنه قد اعتاد على ذلك دوماً،ومما يُقوّي دلالة الاستمرار النفي بـ(لا) والتي أفادت إمتداد معنى النفي امتداداً لا تحققه أداة نفي غيرها(٣) فيخرج من الوعيد مَن فعل ذلك ونَدِمَ عليه. وقد لا يحضّ المرء في كثيرٍ من الأحوال ولا يكون آثماً، إذ ينوب غيرُه منابه أو لأنه لا يُقبَل قولهُ أو لِمَفسَدَةٍ أخرى يتوقعها. أما هُهنا فالكافر لا يفعل ذلك لأنه مُكذّب بالديّن. وليس الذّم عامّاً حتى يتناول مَن تركه عجزاً، ولكنّهم كانوا يبخلون ويعتذرون لأنفسهم ويقولون ﴿ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ ﴾ (٤) ، فنزلت هذه الآية فيهم، وتوجه الذمّ إليهم، والمعنى: لايفعلونه إن قدروا، ولا يحثون عليه إن عسروا فهذه هي صفة الكافر، فمن بخلَ باللّين في قوله كان أشدّ بُخلاً بالبذل من ماله. وقد وُصِفَ بأنه (لا يحضّ) ولم يوصَف بأنه (لا يُطعم) ذلك أنه قد منعَ اليتيم حقّه فكيف يُطعم المسكين من مال نفسه؟ بل هو بخيلُ من مال غيرهِ،وهذه هي النهاية في الخسّة(٥). وفي الآية فنٌ فنٌ بلاغي آخر هو الاحتباك إذ ((الدعّ في الأول يدل على المقت في الثاني والحضّ في الثاني

---

(١) ينظر: محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر، القاهرة، ط٩: ٦١٠/٣.

(٢) وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، بيروت: ٨١٩/٣٠.

(٣) ينظر: عبد الفتاح لاشين، ابن القيم وحسّه البلاغي في تفسير القرآن، دار الرائد العربي– بيروت، ط١، ١٩٨٢م: ٥٢.

(٤) سورة يس: ٤٧.

(٥) ينظر: الرازي، التفسير الكبير(مفاتيح الغيب): ١٠٦/٣٢.

يدل على مثله في الاول))(١). وإضافة الطعام الى (المسكين) تدلّ على أحقيته به، فكأنه منع المسكين مما هو حقّه ممّا يُجلّي عظمة بُخلهِ وغِلظة قلبه وقساوة طبعه. وممّا يؤكد أحقيّة المسكين بذلك هو التعبير عن الإطعام بـ(طعام) فالمسكين يُشارك الغني في مالهِ بقدر ما فرضَ الله من كفايته، ((فالطعام: اسم الاطعام، وهو اسم مصدر مضاف إلى مفعوله إضافة لفظية ويجوز أن يكون الطعام مُراداً به ما يُطعَم كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ ﴾ (٢) فتكون إضافة (طعام) الى المسكين معنوية، أي الطعام الذي هو حقه على الاغنياء ويكون فيه تقدير مضاف مجرور بـ(على) تقديره: ((على إعطاء طعام المسكين))(٣). وهو من باب الايجاز بالحذف أيضاً. وقد جاء نفي الحضّ كنايةً عن نفي الإطعام لأنّ الذي يشحّ بالحضّ هو بالإطعام أشح. والمسكين: الشديد الفقر ولذلك أوثر هنا لأنّ الفقير هو الذي له بُلْغَةٌ من العيش، أمّا المسكين فلا شيء له(٤). فعبَّر به – على سبيل الاكتفاء – على الفريقين والصورة تجلّي حدّة الجوع الذي اقترن به حال المسكين بذكرِ طعامٍ لم يَصِلْهُ بل لم يكن حثٌّ عليه، ومما يزيد حرارة هذا الجوع هو أنَّ الممنوع أو الذي لم يُحثّ عليه هو حقٌّ أقرّهُ الخالق الذي قسَّم الرزق.

ومن الجانب الآخر للصورة تتجلّى ملامح الكافر الذي قسا وغلظ على اليتيم في دَعّه، وبخلَ على الناس بماله، بل بخل على المسكين فلم يُكلّف لسانه بالحث على طعامه الذي هو حقٌ يُبيّنه إيثار (طعام) على (إطعام) والذي يُصوّر المسكين وكأنه مالكٌ لما يُعطى له كما في قوله تعالى: ﴿ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝٢٥ ﴾(٥)، فهو بيانٌ لشدّة الاستحقاق.، فضلاً عمّا فيه من إشارةٍ للنهي عن الامتنان(٦). وكيف يكون الحثّ على طعام المسكين من كافرٍ مُكذّبٍ بالدين، وقد بخل باللين في كلامه وقوله على اليتيم، فأبدلَ ذلك بالدعّ، وبخل باللين في الكلام على المسكين فلم يحضّ على طعامه، إنها صورة غاية في البشاعة، إذ وصفَت الكافر المُكذّب بصفتين: الأولى: زجرهُ اليتيم وطرده، والثانية: عدم الحضّ على اطعام

---

(١) برهان الدين بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ١٩٨٤م: ٢٢/٢٨٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٩.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٣٠/٥٦٦.

(٤) ينظر: محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير: ١/٥٤٣.

(٥) سورة المعارج: ٢٤-٢٥.

(٦) ينظر: القاسمي، (محاسن التأويل): ٩/٥٥٢.

المسكين، فلم يُحسِن في عبادة ربّه، ولم يفعل الخير لغيره، وجاء ذلك على سبيل مراعاة النظير وهو ((عبارة عن جمع الأمور المتناسبة))(١). فتأتي العبرة والعظة من هذه الصورة بما فيها من صفات– وهو هدف الدعوة القرآنية ومقصد السورة– لتبتعد النفس المسلمة المؤمنة عن كل ما ورد في الصورة من صفات لتنجو بعد ذلك من الهلاك.

وتبدأ السورة بالحديث عن الفريق الآخر، المنافقين، وصفاتهم، فيتوعّدهم الله عز وجل قبل عرض هذه الصفات بالويل:﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ هكذا على سبيل الوصل بالفاء لترتيب الوعيد على الكافرين أيضاً وما ذُكِرَ من قبائحهم، فوضع (المصلين) موضع الضمير للتوصل بذلك إلى بيان أنّ لهم قبائح أخرى غير ما ذُكِر(٢). فابتدأ الوعيد بالهلاك لكل من ذُكِرت صفاته. وكل الأوصاف الذميمة ناشئة عن التكذيب بالدين، فالمصلّون هنا هم المنافقون الذين يسهون عن الصلاة قِلّة مبالاةٍ بها، والمعنى: أنّ هؤلاء أحق بأن يكون سهوهم عن الصلاة– التي هي عماد الدين، والفارق بين الايمان والكفر والرياء، ومنع الزكاة التي هي شقيقة الصلاة – عَلَماً على أنّهم مُكذّبون بالدين(٣). وقد جاء بصيغة الجمع (المصلين) في مقام ضمير الذي يكذب بالدين وهو واحد، لأنه على معنى الجمع إذ المراد به الجنس(٤). وقد تحققّ في الوعيد بالويل ذَمٌّ وتوبيخٌ لهم، وتنكير (ويلٌ) يفيد معناها مُطلقاً من كل قيد وهو التعظيم وزيادة الترهيب، فضلاً عمّا في الإظهار في مقام الضمير (فويل لهم) زيادة في التقبيح لأنهم مع التكذيب ساهون عن الصلاة، وللتسجيل عليهم بأنّ أشرف أفعالهم وصور حسناتهم سيئات وذنوب لخلوّها من الإخلاص، وفي ذلك تهكّمٌ بهم(٥). ولا شك في أنّ المعنيّ بهذه الآيات أولاً المنافقون في عهد النبوّة، ويدخل فيها ثانياً كل مَن وُجِدَ فيهم تلك الخلال الذميمة باعتبار العموم، وقد أفادت فاء التفريع دخول هؤلاء المصلّين المنافقين في جملة المُكذّبين بيوم الدين.

---

(١) فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق د. ابراهيم السّامرائي ومحمد بركات حمدي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٨٥: ١١٣.

(٢) ينظر: الشوكاني، فتح القدير: ٥/٦٧٤.

(٣) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٢/١٣٨٠.

(٤) ينظر: الزمخشري، الكشّاف: ٢/١٣٨١.

(٥) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٦٧.

ويتجلى التناسب بين السورة وسابقتها إذ أمرَ الله في سورة قريش بعبادته وتوحيده ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴾ (١)، وذمّ في هذه السورة ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾.

أمّا التناسب بين الآية (فويل للمصلين) وبين ما قبلها فمن وجهين: الأول: كأنه لمّا ذكر إيذاء اليتيم وتركه للحضّ، كأن سائلا قال: أليس انّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؟ فقيل له: كيف تنهى صلاة هؤلاء عن ذلك وهي مصنوعة من عين الرياء والسهو. والثاني: كأنه يقول: إقدامه على ايذاء اليتيم وتركه للحض تقصير فيما يرجع الى الشفقة على خلق الله، وسهوه في الصلاة تقصيرٌ فيما يرجع الى التعظيم لأمر الله، فلمّا وقع التقصير في الأمرين فقد كملت شقاوته، فلهذا قيل: (فويل)(٢)، وهذا اللفظ يُستعمل عند الجريمة الشديدة، قال تعالى: ﴿ وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴾(٣)و﴿ فَوَيۡلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾(٤) و﴿ وَيۡلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾(٥)، والوعيد بالويل للمصلين من المنافقين، وهو عام يشمل الكافرين الذين عُرضت صورتهم وصفاتهم أيضاً، ولذلك يمكن القول أنّ الآية تُعدّ تذييلاً(٦) -وهي بصيغة الجمع- لأنّ الذي يُكذّب بالدين واحدٌ من المتصّفين بهذه الصفة أيضاً. ولمّا كان المراد بـ(الذي) الجنس للواحد وما فوقه، وكان المُستهين بالضعيف لضعفه يعرض عمّا لا يراه ولا يحسّه لغيبته، وكان مَن أضاع الصلاة كان لما سواها أضيع، وكان من باشرها ربما ظنَّ النجاة ولو كان مرائياً، عبّرَ بالوصف تعميماً، وأتى بصيغة الجمع تنبيهاً على أنّ الكثرة ليست لها عنده عزّة، لأنّ إهانة الجمع مستلزمة لإهانة الأفراد من غير عكس فقال: (المصّلين)(٧)

ولمّا كان وصفهم بـ(المصلّين) تهكّماً بهم، فقد جاء قوله(الذين هم عن صلاتهم ساهون) ترشيحاً لهذا التهكم(٨). وابتدأ ذكر صفتهم بالاسم الموصول (الذين) استهجاناً بهم وتحقيراً لهم ولاسيما أنه جاء موصولاً بما صدر منهم من فعل على سبيل الثبوت والتوكيد. وللموصول إيحاءٌ

---

(١) سورة قريش: ٣.

(٢) ينظر: الرازي، التفسير الكبير(مفاتيح الغيب): ١٠٧/٣٢.

(٣) سورة المطففين: ١.

(٤) سورة البقرة: ٧٩.

(٥) سورة الهمزة: ١.

(٦) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٦٧.

(٧) ينظر: برهان الدين البقاعي، نظم الدرر: ٢٨٠/٢٢.

(٨) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٥٦٧/٣٠.

آخر وهو إرادة العموم لكل من كانت هذه صفته(١). ويأتي ضمير الفصل (هم) للدلالة على أن الوارد بعده خبرٌ مؤكَّد(٢)، فضلاً عن دلالته على قصر السهو عليهم مما استوجب تخصيص الويل لهم. ويأتي قوله (عن صلاتهم) أي: ((التي هي جديرةٌ بأن تُضاف اليهم لوجوبها عليهم، وايجابها لأجل مصالحهم ومنافعهم بالتزكية وغيرها))(٣)، وإذا كانت الصفات السابقة ذُكرت بالصيغة الفعلية من مثل (يُكذّب) و(يدعّ) و(يحضّ) فانّ الصفة هنا تُذكر بالصيغة الاسمية (ساهون) وهي اسم فاعل للجمع أفاد الثبوت، فهم العريقون في الغفلة عنها، فالتعبير بهذا الوصف يدل على ثبوته لهم ثبوتاً يوجب أن لا يذكروها من ذات أنفسهم أصلاً(٤). ومما يزيد دلالة الثبوت أنّ المدعو به من الهلاك مضافٌ الى صاحبه بلام الإضافة الدالة على حصوله وثبوته لهم(٥)، وذلك في قوله (للمصلين).

ولم يلتفت أهل التفسير الى دلالة الحرف (عن) فذهبوا الى أنّ (ساهون) بمعنى لاهون يتغافلون عنها فتضيع أو يضيع وقتها أو أنهم لا يصلّونها كما صلاّها النبي ﷺ أو غير ذلك. ولكن تدبّر السياق وارتباط الآية بما بعدها من قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴾ يعطينا أهمية الحرف (عن)، فنرى النذير بالويل يكبح غرور الإنسان وينهاه عن الفحشاء والمُنكر، ويأخذه بالخشوع والتواضع أمام جلال الخالق وقدرته فيتّقي الله في اليتيم والمسكين مؤدياً حقّهما في التواصي بالمرحمة، فليس السهو عن الصلاة سهوٌ فيها، ولا ترك لها أو ترك لوقتها، وإنما هو سهوٌ عن حكمتها، فصلاة الذي يدعّ اليتيم ولا يحضّ على طعام المسكين لا تصدر عن قلبٍ خاشع، وحين لا تَنهاه الصلاة عن الفحشاء والمُنكر فذلك هو السهو عنها لأنها ستكون طقوساً شكلية ونفاقاً ومراءاة(٦)، فضلاً عن دلالة الحرف (عن) على المجاوزة، أي أنهم تجاوزوا إقامة الصلاة وتركوها، وإن أقاموها فعلى سبيل المراءاة، فهم يؤدّون حركات الصلاة وينطقون بأدعيتها، لكن قلوبهم لا تعيش معها، ولا تعيش بها، وأرواحهم لا تستحضر حقيقة الصلاة وحقيقة ما فيها من قراءات ودعوات، وإقامتها لا تكون إلاّ باستحضار حقيقتها والقيام لله وحده بها، ولذلك فليس لصلاتهم أثر في نفوسهم، مما جعل التعبير القرآني يُضفي عليهم مزيداً من الصفات.

---

(١) ينظر: فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م: ١١٠.

(٢) ينظر: الزمخشري، الكشّاف: ٤٩٦/٣.

(٣) الخطيب الشربيني، تفسير القرآن الكريم، دار المعرفة لطباعة والنشر، بيروت: ٥٩٤/٤.

(٤) ينظر: برهان الدين البقاعي، نظم الدرر: ٢٨١/٢٢.

(٥) ينظر: عبد الفتاح لاشين، ابن القيم وحسّه البلاغي في تفسير القرآن: ٧٠.

(٦) ينظر: عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق: ١٨٩.

واذا كانت حقيقة السهو: الذهول عن أمر سبق علمه، فهو هنا مستعار للإعراض والترك عن عمدٍ للصلاة ولآثارها استعارة تهكمية(١)، كاستعارة الغفلة للإعراض في قوله تعالى: ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (٢). ولاشك في أنَّ للصورة الاستعارية بُعداً نفسيّاً يتمثل في المبالغة في تحقق الصفات في المستعار له وتوكيدها وتقريرها(٣)، ولاسيما حين تكون الاستعارة مشاعر يُقترَضُ بعضها من البعض الآخر بصورة متعمّقة وتعانقٍ صميم في سياقات متآلفة وليست شكلاً إضافياً او ثوباً تزيينياً لِلّغة(٤). وهكذا تأخذ الصورة القرآنية أبعاداً من من الصدق الفكري والشعوري والجمالي تعمق بتأثيراتها الوجدانية وطاقاتها النفسية في الاعماق الباطنة للإنسان لتعمل على تغييرها واصلاحها وهدايتها.

وتأتي الآية السادسة: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ ، إذ كررّ التعبير القرآني (الذين هم) ((ولم يقتصر على مرّة واحدة لامتناع عطف الفعل على الاسم ولم يقل (الذين هم يمنعون الماعون) لأنه فعل، فحَسُنَ العطف على الفعل))(٥)، وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس، ويكون في القول والمظهر وإظهار الصلاة أو تحسينها. والمراءاة: مفاعلة من الاراءة لأنّ المرائي يُري الناس عمله، وهم يُرونه الثناء عليه والاعجاب به، ولا يكون الرجل مرائياً باظهار العمل الصالح إن كان فريضة فمن حق الفرائض الاعلان بها وتشهيرها(٦).

وقد جاء الجمع بين السهو عن الصلاة والمراءاة على سبيل مراعاة النظير، والمراءاة هنا لا تتحدد بأمرٍ واحد. وانما حُذِفَ المفعول للتعميم والايجاز، فهم يراءون بصلاتهم وغيرها لأنهم يفعلون الخير ليراه الناس لا لرجاء الثواب ولا خوف العقاب، وقد جاء الوصف بالصيغة الفعلية للدلالة على التجدد والاستمرار والحركة، وعلى أنه فعل إرادي على الدوام، أما تقديم المسند اليه على الخبر الفعلي (هم يراءون) فقد أفاد تقوية الحكم وتأكيده، فضلاً عمّا في الآية من توبيخ لهم وتقريع إذ إنّ مَن اتصّفَ بذلك فلا نظرَ له لغير الحاضر فهو كالبهائِم.

---

(١) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٣٠/٥٦٩.

(٢) سورة الأعراف: ١٣٦.

(٣) ينظر: مجيد عبد الحميد ناجي، الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٤م: ٢٢١.

(٤) ينظر: رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٧٩م: ١٥٨.

(٥) اسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان، دار الفكر للطباعة والنشر: ١٠/٥٢٣.

(٦) ينظر: الزمخشري، الكشّاف: ٢/١٣٨١.

ولمّا كان المرائي ربما يفعل قليل الخير رياءً فَيُصلّي إذا حضر ولا يُصلّي إذا غاب، بيّن القرآن أنهم قد غلبَ عليهم الشُّحّ فلم يتمكّنوا –مع كثرة الرياء منهم– أن يراؤوا بالشيء القليل، فقال عنهم (ويمنعون الماعون) أي على تجدد الأوقات، وأوجز بحذف المفعول الأول لإفادة التعميم. و(الماعون) من المَعن وهو في اللغة الشيء اليسير(١)، وفي ذلك زجرٌ عن البخل بما قلَّ قلَّ أو كثر، فانّ البُخلَ بالقليل نهاية البخل وهو مُخلٌّ بالمروءة. وهكذا فانهم لم يحسنوا عبادة ربّهم ولم يُحسنوا الى خلقهِ حتى ولو بإعارة ما ينتفع به ويُستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، إذ فُسِّرَ (الماعون) بالآنية كالفأس والقِدر والدلو وغيرها(٢).

وقد ذكر القرطبي(٣) في تفسير (الماعون) أكثر من عشرة أقوال. والوصف بـ(يمنعون الماعون) – والذي جاء على سبيل الجناس غير التام– يأتي مُكمّلاً للوصف السابق (ولايحضّ على طعام المسكين) على سبيل ردّ العجز على الصدر، ففيه ردٌّ لصورة المنافق على صورة الكافر. فلا حثّ ولا عطاء، وعلى تفسير (الماعون) بالطعام القليل يكون مجازاً مُرسلاً بعلاقة الآلية، إذ فُسِّر بالماء والنار والملح(٤)، ولاشك في أنَّ المجاز المرسل يقوم بعملية تصوير موحية تنتقل بالذهن الى آفاقٍ من المعرفة لا يحققها اللفظ على الحقيقة، فلفظ (الماعون) جمع بين شحّ هؤلاء بالآنية وبما يُعطى بها من قليل الطعام. والتعبير بالمضارع (يمنعون) يفيد استحضار الصورة وكأنّ السامع يعاينها ويشاهدها.

وهكذا تشير الآيتان الأخيرتان إلى أنّ الصلاة لله ﷻ ، والماعون للخلق، فمن ترك الصلاة لم يراع جانب تعظيم أمر الله، ومَن منع الماعون لم يراع جانب الشفقة على خلق الله، فاستحقَّ بذلك الويل والهلاك. ولا يخفى ما بين (يراءون) وبين (يمنعون) من طباقٍ معنوي إذ يُقابَلُ الشيء بضدّه في المعنى لا في اللفظ(٥)، مما يُجلّي إزدواجيةً وتناقضاً داخل النفس الخبيثة إذ هي بين المراءاة (الإظهار) وبين المنع (الإخفاء). وهكذا جمعَ المنافقون أوصافاً ثلاثة: السهو عن الصلاة، والرياء،والبُخل، وقد قال تعالى عنهم: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ

---

(١) ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: ٩٥٣ مادة(معن). وينظر: اسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان: ٥٢٣/١٠.

(٢) ينظر: ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة: ٥٥٥/٤.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢١٢/١٩–٢١٥.

(٤) ينظر: الزمخشري، الكشّاف: ١٣٨١/٢.

(٥) ينظر: احمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٦م: ٢٥٧/٢.

يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَرِهُونَ ﴾ (٢)، فلو كانوا يقيمون الصلاة حقاً لله ما منعوا العَون عن عباده، فهذا هو محكّ العبادة الصادقة، فإذا لم تترك الصلاة أثرها في القلوب والأعمال فهي إذن هباء، بل هي معصية ينتظر صاحبها سوء الجزاء. والجمع بين الفعلين (يراءون) و(ويمنعون) يُعدُّ أيضاً من مراعاة النظير.

أمّا فواصل السورة فلها وقعها وأثرها في النفس، فالنون في هذه الفواصل تتناغم مع معاني الآيات وكأننا نسمع أنين اليتيم وهو يُدفَع بعنفٍ وزجر. ونسمع أنين المسكين يتضوّر جوعاً والماً دون طعامٍ بل دون كلمة طيّبة وحثٍّ على المعونة. ومن جانب آخر نسمع أنيناً من نوع آخر، انه أنين الكافرين والمنافقين الذين استحقوا الويل والعذاب جزاءً على التكذيب بيوم الحساب، وعلى دعِّ اليتيم وعدم الحضّ على طعام المسكين، وجزاءً للمنافقين على السهو عن الصلاة والمراءاة والبخل، وعدم إعانة المحتاجين. فالفاصلة جاءت مؤثرة بايقاعها النوني ولتؤطّر الصور المختلفة في هذه الآيات. والفاصلة القرآنية تَرِدُ وهي تحمل شحنتين في آن واحد، شحنة من الوقع الموسيقي، وشحنة من المعنى المتمّم للآية(٣). وهكذا يتوالى السبك القرآني على هذا النمط المُعجز في كل هذه الألوان البلاغية وغيرها، فلكلّ كلمة دلالة خاصة في نَسَقٍ خاص، وايحاء توحي به في النظم لا يوجد إذا تغيَّر وجه التعبير والصياغة.

الخاتمة

وبعد، فقد تمخضت عن البحث نتائج نجملها بما هو آت:

١- حاول البحث أن يجلّي الوظيفة التعبيرية والتصويرية للظواهر البلاغية المختلفة في نسيج السورة وأثرها في الكشف عن دلالاتها، فالظواهر البلاغية تحتضن الأفكار والمعاني، فتتجلى من خلالها بحيوية وقوة تأثير في المتلقي، فهي بذلك جزء مهم من بناء السورة لها أهدافها في التعبير.

٢- أسهمت الفنون البلاغية المختلفة في إيصال مضامين السورة ومقاصدها بشكل عميق، إذ أظهرت صورة المكذّبين بالحساب والجزاء من خلال البدء ببراعة المطلع وحسن الاستهلال بالاستفهام للتشويق وجذب الانتباه، ثم الوصف بالاسم الموصول بعد الإشارة وإيثار الصيغ

---

(١) سورة النساء: ١٤٢.

(٢) سورة التوبة: ٥٤.

(٣) ينظر: بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٩٧٩م: ٢٠٣.

الفعلية في توصيف الكافرين المكذّبين من مثل (يُكذّب) و(يدعّ) و(يحضّ) وبعدها في (يراءون) و (يمنعون) للايحاء بالتجدد والاستمرار واستحضار الصورة. وحين استلزم الوصف بالاسمية عبّر بـ(ساهون) للدلالة على ثبوت الصفة لهم وليتناسب مع استحقاقهم الويل.

٣- تواشجت الفنون البلاغية فيما بينها في نسيج السورة على نحو متناغم، فتحقق حُسن الابتداء بالاستفهام المتواشج مع التعريف في (الدين) والوصل بالفاء في (فذلك) ومع وضع الظاهر موضع الضمير (هو) للإيحاء ببعد منزلة الكافر شراً وفساداً، فضلاً عن الايجاز بالحذف. ولا يخفى ذلك التنويع في ادوات الوصل مما أظهر الوحدة الموضوعية للسورة والتي تضمّنت فن الاحتباك الذي يُعدّ جزءاً من الايجاز في السورة. وتناغمت الاستعارة التهكمية مع مَن وصفتهم السورة بالصفات الذميمة التي جاءت مرّة بالطباق المعنوي في (يراءون) و (يمنعون)، ومرّة بالجناس في (يمنعون الماعون). وبلغت دقة ايثار التعبير القرآني للألفاظ غاية في الوفاء بالمعنى والامتاع بالجمال حتى على مستوى الحرف (عن)، فضلا عن دقة التكرار في موضعه كما في (الذين هم). وتجلى فن مراعاة النظير في (دعّ اليتيم) و(عدم الحضّ) وكذلك في (السهو عن الصلاة) و(المراءاة) ثم بين (المراءاة) و (منع الماعون).

٤- بدَت الآيات السبع مُترعة بالظواهر البلاغية التي احتضنت المعاني، وكان لها اثرها في ايصال مقاصد السورة والتأثير في المتلقي، من ذلك مقابلة صورة المنافق بصورة الكافر من خلال ردّ العجز على الصدر بين (يمنعون الماعون) وبين(لا يحضّ على طعام المسكين). وكذلك في اسلوب القصر بضمير الفصل مرتين(الذين هم). وكانت ألفاظ السورة قد امتازت بوفرة الدلالة من مثل (الماعون) والتي أكثر المفسّرون الحديث عنها، فضلاً عن جمعها بين الحقيقة والمجاز المرسل. وكان للإيماء والرمز والكناية أثرها الواضح في التأثير –على سبيل المخالفة– في المؤمنين، فَعرْضُ صورة الكافر وصفاته وصورة المنافق وصفاته يدعو المسلمين الى كفالة اليتيم ورعايته والاحسان الى المسكين بالقول والعمل، فضلاً عن توفية الصلاة حقّها وعدم السهو عنها والابتعاد عن المراءاة، والإنفاق في سبيل الله ونشر مبدأ التكافل ومساعدة الآخرين، وكل ذلك من دعائم بناء المجتمع الإسلامي.

المصادر والمراجع

١- ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة.

٢- أبو الحسين احمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٣- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق الشيخ عادل احمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٩٧١م.

٤- أبو السعود محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده- مصر.

٥- أبو الطيب القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن، قدّمَ له عبد الله بن ابراهيم الأنصاري، دار إحياء التراث الإسلامي- قطر.

٦- أبو عبد الله محمد بن احمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي- القاهرة، ١٩٦٧م.

٧- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٨- ابو محمد بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق السيد عبد العال السيد إبراهيم، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية- قطر.

٩- احمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، مطبعة المجمع العراقي- بغداد، ١٩٨٦م.

١٠-احمد فتحي رمضان، في سورة اللهب – دراسة بلاغية، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العدد ٣١ سنة ١٩٩٨.

١١-احمد فتحي رمضان، (هن عوادي يوسف) لأبي تمام الطائي، دراسة بلاغية في متنها الشعري، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العدد ٢٢ سنة ١٩٩١.

١٢-احمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

١٣-اسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان، دار الفكر للطباعة والنشر.

١٤-برهان الدين بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسوّر، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية- قطر، ط١، ١٩٨٤م.

١٥-بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق- القاهرة، ط٣، ١٩٧٩.

١٦-الخطيب الشربيني، تفسير القرآن الكريم، دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت.

١٧-الخطيب القزويني، الايضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق د.محمد عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب- بيروت، ١٩٨٩م.

١٨-سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط٧، ١٩٧١م.

١٩-عائشة عبد الرحمن، الاعجاز البياني ومسائل ابن الازرق، دار المعارف بمصر، ١٩٧١م.

٢٠-عبد الفتاح لاشين، ابن القيم وحسّه البلاغي في تفسير القرآن، دار الرائد العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

٢١-عمار ساسي، الاعجاز البياني في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث- الاردن، ط١، ٢٠٠٧م.

٢٢-فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، دار احياء التراث العربي- بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.

٢٣-فخر الدين الرازي، التفسير الكبير(مفاتيح الغيب)، دار الكتب العلمية- بيروت، ٢٠٠٩م.

٢٤-فخر الدين الرازي، نهاية الايجاز في دراية الاعجاز، تحقيق د.ابراهيم السامرائي ومحمد بركات حمدي، دار الفكر للنشر والتوزيع- عمّان، ١٩٨٥م.

٢٥-مجيد عبد الحميد ناجي، الاسس النفسية لاساليب البلاغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر- بيروت، ط١، ١٩٨٤م.

٢٦-محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فَنَّي الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء- لبنان.

٢٧-محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، ضطه وصحّحه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت.

٢٨-محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع- تونس.

٢٩-محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر- القاهرة، ط٩.

٣٠-وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر- بيروت.

٣١-ياسين نصير، الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد.